

"بعض الحب لا يأتي في وقته..
ولا يزرع في الأرض الصحيحة..
فيكون مصيره الفراق..



في غير أوانه

رواية



نهد سليمان دالاتي



في غير أوانه

إلى كل قلب
"حب بصدق..
و خسر نفسه..
في غير أوانه..
♡

— رواية —
نهد سليمان دالاتي



من سوريا ..
إلى لبنان ..
حكاية حب لم تكتمل ..
♡



قصة حب حقيقية ..
بين قلب لم يعرف الرحيل ..
وعقل عرف أنه خاسر ..

في غير أوانه

رواية

نهد سليمان دالاتي

تنويه

هذه القصة حقيقيةٌ بكل تفاصيلها ووجعها، وليست من نسج الخيال؛
نبئت أحداثها من قلب الواقع، وعاشها أصحابها بكل جوارحهم. وقد
عُيِّرت الأسماء حفاظًا على خصوصية أصحابها.

سُطِّرت هذه الصفحات لتتنقل إليكم مشاعر صادقة ومواقف حيّة،
عسى أن تلامس قلوبكم كما لامست واقعنا.

ما كُتِب هنا ليس حكايةً تُروى، بل جرحٌ تعلّم أن يتكلم.

إهداء

إلى كل قلبٍ أحبَّ بصدق، ثم وقف طويلاً على عتبة بابٍ لم يُفتح.
وإلى كل روحٍ علّمها الفقد أن تنهض من جديد، وأن تبقى نقيّة رغم
الجراح.

وإلى مهد التي كانت في تلك الأيام كلها صادقةً حتى آخر نبضة، ولم
تندم يوماً على صدقها.

الفهرس

5	مقدمة
7	الفصل الأول: صدفةٌ في غير موعدها
10	الفصل الثاني: في الحادي عشر من أيار
13	الفصل الثالث: ليلةٌ بلا شبكة
16	الفصل الرابع: وعودٌ لا تشيخ
19	الفصل الخامس: والخطُ مفتوحٌ حتى الفجر
23	الفصل السادس: أول الصمت
26	الفصل السابع: عشرون مكالمَةً بلا جواب
30	الفصل الثامن: أعذارٌ بلا نهاية
33	الفصل التاسع: ثلاثة أشهرٍ من الدموع
37	الفصل العاشر: رسالةٌ بعزّ قلب
41	الفصل الحادي عشر: أسئلةٌ لا تجد جواباً
45	الفصل الثاني عشر: في غير أوانه
48	الخاتمة

مقدمة

ليست كل الحكايات تُكتب لأن أصحابها يملكون القدرة على الحكيم، فبعضها يُكتب لأن القلب لم يعد يتسع لما فيه. وهذه الصفحات واحدة من تلك الحكايات؛ حكاية حبٍّ بدأ هادئاً كغيمةٍ في أول أيار، وامتلأ بالوعود والسهر والأحلام الصغيرة، ثم انسحب فجأةً كما ينسحب الضوء من غرفةٍ لم يُنذَر أهلها بالغروب.

بين سوريا ولبنان مسافةٌ لا تتجاوز كيلومتراتٍ قليلة على الخريطة، لكن المسافة بين قلبين قد تتسع حتى لا تعبرها ألف رسالة. وفي هذه الرواية تقف مهد وخالد على ضفتي تلك المسافة؛ هي تمدّ يدها بكل ما تملك من صدق، وهو يتراجع خطوةً بعد خطوة دون أن يقول لماذا.

لم أشأ أن أكتب هنا عن بطلٍ وضحية، ولا عن حكمٍ يُصدَر أو لومٍ يُوزَع. أردتُ فقط أن أروي ما حدث كما شعر به القلب، بتفاصيله الصغيرة التي لا يلتفت إليها أحد: رثة هاتِفٍ في منتصف الليل، وعلامة رسالةٍ لا تُقرأ، ودمعةٍ تُخبأ عن الأهل خلف ابتسامةٍ مصطنعة.

وقد اخترتُ أن تكون اللغة فصيحَةً صافية، لأن الوجد حين يُكتب بلسانٍ رفيع يبقى أطول عمراً في الذاكرة، ولأن بعض المشاعر لا يليق بها إلا ثوبٌ بهيٍّ يصون كرامتها. وهكذا جاءت الفصول مرتبةً بحسب ما

عاشه القلب لا بحسب ما سجّلته الساعات: لقاء، فاعتراف، فحبّ
ممتلئ، فصمتٌ ثقيل، فانتظارٌ لا يريد أن يتعب.

فإن وجدتَ في هذه الصفحات شيئاً من نفسك، فاعلم أنك لست
وحدك، وأن الذي أحبّ بصدق لم يخسر شيئاً مما كان عليه، وإن خسر
كل ما كان له.

الفصل الأول صدفةٌ في غير موعدها

كان أيار قد بدأ يفتح نوافذه على الدنيا، وفي بيتٍ هادئٍ من بيوت سوريا كانت مهد جالسة في غرفتها الصغيرة، تضم هاتفها إلى صدرها كما يضم المرء نافذةً يطلّ منها على عالمٍ أوسع من جدران الغرفة. كان أهلها في البيت؛ أصواتهم تتسلل إليها من وراء الباب خافتةً مألوفة: صوت الأواني في المطبخ، وخطواتٍ تعبر الممر، وضحكةٌ عابرة تذكرها بأنها في حضن أمانٍ لا ينقصه شيء. أما هي فكانت في عزلتها اللطيفة، لا تنتظر أحداً، ولا تدري أن القدر كان يرتّب في تلك اللحظة أولى خيوط الحكاية.

في الخامس من أيار لم يكن في اليوم ما يميّزه عن سائر الأيام. سماءٌ عادية، وضوءٌ يتسرّب من الستارة، وهاتفٌ في اليد يضيء بتطبيقاتٍ للدراسة الصوتية والكتابية، تتزاحم فيه الأسماء كما يتزاحم العابرون على رصيف محطة. وفي وسط ذلك الزحام وصلتها كلمةٌ من شابٍ اسمه خالد، يأتي من لبنان، من الجهة الأخرى من الحدود، حيث يبدو البحر في الخيال أقرب مما هو في الواقع.

لم تكن الكلمة استثنائية. تحيةٌ بسيطة، وسؤالٌ عن الحال، وابتسامةٌ تُرى بين الأحرف وإن لم تُرسم. غير أنّ مهد، التي اعتادت أن

تمرّ على مثل هذه الرسائل مرور الكرام، توقفت عند هذه. لم تدرِ لماذا. ربما لأن في نبرته هدوءًا يشبه الطمأنينة، وربما لأن القلب، ذلك الكائن الغامض، يعرف أحيانًا قبل أن يعرف العقل.

وبدأ الحديث. كلمات قليلة في البداية، ثم أكثر، ثم صوت يخرج من السماعه دافئًا، فيه لهجة قريبة وبعيدة في آن واحد؛ قريبة لأنها من بلاد الشام، وبعيدة لأنها تحمل رائحة مدينة لم تزرها قط. كان يسألها عن يومها فتجيب بخجل مرتبك، وكان يضحك فتضحك، دون أن تعرف أي الضحكتين بدأت أولًا.

كانت تلك المرة الأولى التي تتعرّف فيها مهد إلى شخص بهذه الطريقة. لم يقدّمه إليها أحد، ولم يكن صديقًا لصديقة، ولا ابن جيران يمرّ في الشارع. كان غريبًا تمامًا، جاء من بعيد، من خلف شاشة صغيرة، ومع ذلك شعرت أنه يعرف الطريق إلى مكان فيها لم يدخله أحد قبله.

وفي المساء، حين هدأ البيت وخفتت الأصوات، جلست مهد على سريرها تتأمل الشاشة المنطفئة. ابتسمت دون أن تدري، ثم أدركت أنها تبتسم فاستغربت. قالت لنفسها إنها مجرد دردشة عابرة كغيرها، ستنتهي كما تنتهي المحادثات التي تُفتح صدفة. لكن شيئًا في داخلها كان يهمس بعكس ذلك، همسًا خافتًا لم تعرف يومها كيف تُصغي إليه.

وفي الأيام التالية عاد خالد. عاد في الموعد الذي لم يتفقا عليه، وفي الساعة التي كانت تنتظره فيها دون أن تعترف لنفسها بالانتظار. كان حضوره يتكرر كما يتكرر المطر في أرض عطشى، فتفتتح له مسامها واحدةً بعد أخرى. وصارت تلاحظ أنها تنظر إلى الهاتف أكثر مما كانت تفعل، وأنها تختار كلماتها بعناية قبل أن ترسلها، وأنها تضحك على نكاتٍ لم تكن لتضحك عليها مع غيره.

لم يكن في الأمر ما يُخيف. هكذا ظنّت. فالقلب حين يبدأ رحلته الأولى لا يرى الطريق إلا مُضاءً، ولا يرى الهاوية التي تنتظر في آخره. كانت مهد تمشي نحو ذلك الضوء بخطى صغيرة، واثقةً بكلماتٍ لم يُكتب لها أن تكون وعودًا بعد، وبصوتٍ كان يزداد حضورًا في أيامها حتى صار الإيقاع الذي تُبنى عليه ساعاتها.

وهكذا بدأت الحكاية، هادئةً كغيمةٍ في أول أيار، ناعمةً كاعترافٍ لم يُنطق بعد. ولم تكن مهد تعلم أنّ أجمل بدايةٍ في العمر قد تكون أبعد الأشياء عن نهايتها المتوقعة، وأنّ هذا الصوت الذي دخل غرفتها من نافذة الهاتف سيجلس يومًا على أطلال قلبها، ويترك فيه ما لا يُنسى.



«بعض اللقاءات لا تطرق الباب، بل تدخل من نافذة القلب حين يكون مفتوحًا على غير حذر.»

الفصل الثاني في الحادي عشر من أيار

بعد ستة أيام من اللقاء الأول، جاء الحادي عشر من أيار. كان يومًا آخر في روزنامة لا تلتفت إليه، لكنه صار لاحقًا أحد التواريخ التي يحفظها القلب دون أن يُطلب منه. في ذلك اليوم انتقلت الحكاية من تطبيق الدردشة إلى «واتساب»، كأن الحديث ضاق بالمكان الأول وبحث عن بيتٍ أوسع يليق به.

كتب لها خالد: «هنا أرتاح أكثر»، فابتسمت وأجابت: «وأنا أيضًا». وكانت تلك الجملة الصغيرة أول جسرٍ حقيقي يُبنى بين ضفتين؛ ضفةٍ في سوريا وأخرى في لبنان، بينهما مسافة تُقاس بالكيلومترات لا بالأحاسيس.

شيئًا فشيئًا بدأت الأشياء تتضح. لم يكن خالد يتكلم عن مشاعره صراحةً، لكنه كان يُظهرها بين السطور كما تُظهر الشمس دفاها من وراء الغيم. كان يسأل عنها أكثر من اللازم، ويتذكر تفاصيل ما قالته قبل أيام، ويغيب قليلاً فيعود معتذرًا كأن غيابه ذنب. وكانت مهد، بفطرة الأنثى التي لا تُخطئ هذه الإشارات، تفهم ما لم يُقل: إنه يحبها.

لم تتعجل. كانت تخشى أن تكون أخطأت التقدير، وأن تحمّل الكلمات أكثر مما تحتمل. لكن شيئًا آخر كان يحدث في داخلها

بصمت؛ شيءٌ يشبه ضوءًا ينمو في غرفةٍ مظلمة، يزداد كل يومٍ درجةً حتى لا تعود قادرةً على إنكار وجوده. صارت تحسّ في قلبها بمشاعر لم تعرفها من قبل، مشاعر تتسلل إليها كلما سمعت صوته، وتبقى معها بعد انتهاء المكالمات، تسهر معها على الوسادة وتوقظها في الصباح.

وجاءت اللحظة التي لا بد أن تأتي. لم يكن فيها مسرحٌ ولا موسيقى، بل مجرد كلماتٍ بسيطة قيلت بصدق، ككل الأشياء العظيمة التي تُولد صغيرةً وخجولة. اعترف كلُّ منهما للآخر بما في قلبه، وكأنهما كانا يعرفان الجواب قبل أن يُطرح السؤال. وفي تلك الليلة لم تنم مهد. جلست في الظلام تضحك وتبكي معًا، لا تعرف أيُّهما أصدق، وتقول لنفسها: «أحبّني، وأحبّيته».

كان أهلها في البيت كالعادة، وكانت الحياة خلف الباب تسير على إيقاعها المعتاد؛ لا أحد يدري أن في الغرفة المجاورة قلبًا انتقل في ليلةٍ واحدة من ضفةٍ إلى ضفة. وهي لم تُخبر أحدًا. كان الفرح أكبر من أن يُقال، وأثمن من أن يُعرّض لعيون العالم.

وفي الأيام التي تلت الاعتراف، تغيّر لون الدنيا. صار الصباح أخفّ، والمساء أطول، والانتظار أجمل. كانت تفتح هاتفها فتجد كلمةً تنتظرها كما تنتظر الأرض أولى قطرات المطر. وكان هو يقول لها ما لم تسمعه من قبل، فتصدّقه، لأنها لم تعرف قبله أن للكلمات أن تكون بهذا الصدق.

لم تكن مهد تخفي مشاعرها. كانت تقول ما تحسّ به دون لُفٍّ أو دوران، دون أقنعةٍ يرتديها الآخرون في الحب خوفًا من الخسارة. كانت تؤمن أن الصدق هو الدرع الوحيد الذي يحمي الحب، وأن من يُحبّ بصدقٍ لا يخسر أبدًا. وكم كان إيمانها هذا نقيًا وبريدًا، وكم كلفها لاحقًا! كانا يتحدثان ساعاتٍ طويلة، في كل شيء وفي لا شيء. عن الأيام وأحلامها الصغيرة، عن العمل وتعبه، عن الأهل وحكاياتهم، عن المدن التي لم يزوراها ولكنهما رسماها معًا في الخيال. ومَرَّت الأيام كأنها تركض، وهما يتشاركان نفسًا واحدًا من وراء الحدود.

وفي ليلةٍ هادئة، قالت له مهد إنها لم تتخيل أن تحبّ أحدًا بهذه الطريقة، فأجابها بكلمةٍ بقيت ترنّ في أذنها أيامًا طويلة. لم يكن يعلم، ولا هي، أن بعض الكلمات تكون أجمل ما يُقال في حياتنا، وأقسى ما يُتذكّر حين تنتهي.

وفي مساء ذلك اليوم جلست قرب نافذتها تنظر إلى الشارع الهادئ، وتشعر أنّ شيئًا في العالم قد تغيّر قليلًا، وإن لم يتغيّر فيه شيءٌ ظاهر.



«حين يعترف القلب لا يسأل عن الغد، يظنّ أن الصدق وحده يكفي ليحميه.»

الفصل الثالث ليلة بلا شبكة

في الأيام الأولى من الحب، يكون كل شيء كبيرًا: الكلمة الصغيرة، والصمت القصير، والغياب الذي لا يتجاوز دقائق. وكان على مهد أن تتعلم هذا الدرس يومًا ما، في يوم لم يكن فيه شيء سوى انقطاع الشبكة.

كانت الشبكة ضعيفة في المكان الذي تسكنه، تأتي وتذهب كضيفٍ مترددٍ، وفي ذلك اليوم قررت أن تغيب كلها. أغلق الإنترنت، فلم تجد مهد سبيلًا إلى الوصول إليه. حاولت مرةً وأخرى، فلم تجد إلا الصمت. كان هاتفها بين يديها كحجرٍ أصم، لا يضيء ولا يُجيب. ومرّ النهار كله، يومًا كاملاً، دون أن تستطيع أن تقول له كلمةً واحدة.

أما هو فانتظر. انتظر ساعةً بعد ساعة، وكلما مرّ الوقت نمت في صدره غيمةً سوداء. لم يفهم معنى الغياب بلا سبب. لم يكن يعلم أنها عاجزة عن الوصول، وكان القلق، ذلك الوجه الآخر للحب، يشتغل في داخله بلا رحمة.

وحين عادت الشبكة أخيرًا، وصلت مهد إلى هاتفها كمن يصل إلى بيته بعد سفرٍ طويل. فتحت الرسائل فوجدته قد كتب كثيرًا، وانتظر كثيرًا، وغضب كثيرًا. كانت كلماته مشحونة بما يشبه الألم والعتب:

— كان عليك أن تفعل أي شيء لتطمئنيني عنك. فقد ظلّ بالي معك طوال اليوم.

قرأت مهد الجملة مرارًا، وقلبها يخفق بين الشفقة والحيرة. لم تكن قد أخطأت، فالأمر لم يكن بيدها. غير أنها لم تكن تحتل أن تراه حزينًا بسببها. كان حبه ما يزال غصًا جديدًا، وكانت تخاف عليه من أي خدش كما تخاف الأم على وليدها.

لم تجادل ولم تبرّر طويلاً، ولم تقل إن الشبكة هي التي غابت. اعتذرت. كتبت له بنعومة لا تعرف كيف خرجت منها:

— حقك عليّ. سامحني.

وكانت تلك أول مرة تعتذر فيها عن شيء لا ذنب لها فيه. لم تكن تعلم أنها تفتح بابًا صغيرًا سيمرّ منه الكثير فيما بعد. كان كل ما يهمها حينها أن يعود الصفاء، وأن يهدأ قلبه، وأن يعود هو كما كان.

وعاد. هداً غضبه بسرعة، كما تهدأ العاصفة حين تجد قلبًا يتسع لها. وصارت الدردشة بينهما أكثر دفئًا، وصار هو يقول لها إنه خاف عليها، وإنه لا يتحمل فكرة أن يفقدها. وكانت هي تستمع إليه وتبتسم، وفي ابتسامتها شيء من الارتياح، وشيء آخر لا تعرف تسميته.

لكنّ تلك الليلة بقيت عالقةً في ذاكرتها. لم تكن تفكر فيها دائمًا، ولكنها كانت تعود إليها أحيانًا كظلّ صغير يمرّ على الجدار. تسأل

نفسها: لماذا غضب وهو يعلم أن الشبكة ضعيفة عندها؟ ولماذا اعتذرت وهي لم تُخطئ؟ ثم تسكت. فهي تحبه، ومن يحب يُغفر له كل شيء، ويُبرّر له كل شيء، ويُلتمس له ألف عذر.

وبمرور الأيام كبر الحب بينهما. صار أقرب وأعمق، وصارت الأشياء الصغيرة بينهما تكبر لتصير عاداتٍ جميلة: صباحٌ يبدأ بكلمة، ومساءً ينتهي بصوت. ولم يحدث بعدها أن غضب أحدهما من الآخر، ولا أن عتب أحدهما على صاحبه. كانت الأيام تسري كنهرٍ هادئ، لا يعكّره شيء.

ولم تدرك مهد حينها أن الهدوء الجميل قد يكون أحياناً مقدمةً لصمتٍ أطول؛ وأن النهر الذي يجري بهدوء، حين يجفّ، لا يترك خلفه سوى الحجارة العارية والذكريات الرطبة.

وكانت، وهي تعتذر، تشعر بخفّة غريبة وثقلٍ غريب معاً؛ خفّة من أنقذ حبّاً من خدش، وثقلٍ من لم يفهم بعدُ لماذا دفع الثمن وحده. غير أنّ الفرح بعودة الصفاء كان أقوى من كل سؤال، فطوت السؤال في قلبها كما تُطوى رسالة لا يُراد لها أن تُقرأ الآن.



«أخطر ما في الحب الأول أنه يعلمنا أن نعتذر عن أشياء
لا ذنب لنا فيها.»

الفصل الرابع وعود لا تشيخ

مرّت الأيام بعد ذلك اليوم، وكل يوم يمرّ كان يقربهما أكثر. لم يعد الحب مجرد كلماتٍ ثقال، بل صار نسيج حياةٍ كاملة. أخذ خالد حيزًا في وقتها، وصار يسكن تفاصيل يومها كما يسكن الضوء نافذة البيت. حين تفتح عينيها، تفكر فيه. وحين تغلقهما، يكون آخر ما تراه.

أحبّته مهد حبًّا لا يعرف الحدود. أحبّته بكل ما في قلبها من حب، وبكل مشاعرها، واهتمّت به في كل شيء. أعطته وقتها واهتمامها وأنفاسها، وجعلته شريك فرحها وحزنها. لم تبخل عليه بشيء، فقد كانت تؤمن أن الحب عطاءٌ صافٍ لا يُحسب بالموازين. وكانت ترى في عينيها، من وراء الشاشة، ما يطمئنها أنها لم تُخطئ حين وهبت قلبها. ومع ذلك كان في أعماقها خوفٌ صغير. خوفٌ لا تعرف من أين جاء، يسكن زاويةً بعيدة من قلبها ولا يُفصح عن نفسه إلا في ليالي الصفاء. لذلك كانت تقول له أحيانًا، بصوتٍ يرتجف رغم محاولتها إخفاءه:

— لا تقهرني، ولا تتركني. وإذا كنت ستذهب فاذهب من الآن، ولا تتركني أحبّك أكثر.

كانت تنطق الكلمات كمن يحتمي بها من قدرٍ لا يراها. وكان هو يجيبها بحنانٍ يطمئن كل المخاوف:

— لن أتركك. لقد أحببتك.

وكانت كلماته تلك تسكب على قلبها سكينه عجيبة. كانت تصدقه تصديقاً كاملاً، لا تشوبه ريبة. لم تكن تعرف أن الوعود حين تُقال بهذه السهولة قد تكون أسهل ما يمكن نسيانه، وأن أصدق الأقوال في لحظتها قد تكون أبعداها عن الوفاء فيما بعد.

وكان الحب في ذلك الوقت صادقاً فعلاً. كان خالد يعاملها بحب كبير، كبير جداً، يتجاوز الكلمات إلى الأفعال. كان يهتم بتفاصيلها كلها، يسأل عن مزاجها وعن صحتها وعن أحلامها. كان يراها، ويسمعها، ويشعرها أنها مرئية، ويشعرها أنها مسموعة. وهذا أغلى ما يمكن أن يمنحه إنسان لإنسان.

وكان يحدثها عن المستقبل، فيرسم لها بيتاً في الخيال وحياتاً صغيرة. كان يقول لها إنه سيتزوجها، وإنه يتخيلها يوماً حاملاً بابنه أو ابنته، تمشي في البيت بخطوات بطيئة، وهو يجلب لها كل ما تشتهي من أطعمة الوحام. كانت مهد تسمع هذا الكلام وتغمض عينيها، وترى بيتاً يضج بالضحك وطفلاً يحبو بين يديها، فيتسع قلبها حتى يكاد يفيض.

لم يكن أي شيء في ذلك الوقت ينبئ بما سيأتي. كان الحب يتفتح كزهرة في ربيع دائم، وكانت هي تسقيه من عمرها دون حساب. حتى الأهل في البيت، الذين لم يعلموا شيئاً، لم يلحظوا سوى أنها صارت أكثر إشراقاً، وأن وجهها يحمل ضوءاً جديداً.

ومرّت أسابيعُ جميلة. لم تعرف فيها مهد معنى الخيبة، ولا حسّت بحزنٍ يمّسّها من جهته. كان يكفي أن يقول لها كلمة، لتتحول الدنيا إلى حديقة. وكانت تقول لنفسها بين الحين والآخر: «يا رب، لا تغيّر شيئاً. أبقِ كل شيءٍ كما هو».

لكنّ الأمنيات حين تُقال بهذه الحرارة تخشى القدر وتتوجس منه. والقدر، فيما يبدو، لا يحب أن يُطلب منه ثبات الأشياء.

وكان ما سيأتي بعيداً، لم تلمحه مهد بعدُ في أفق أيامها. كل ما كانت تعرفه أنها تُحبّ وتُحب، وأن قلبها في أمان. وهل أجمل من ذلك؟ هل أجمل من أن يصدّق المرء أن العالم قد ابتسم له أخيراً؟

كانت تحفظ تلك الكلمات كما تحفظ الأمّ أول ضحكةٍ لوليدها، وتعيدها على نفسها قبل النوم، فتنام وعلى شفّتها ابتسامةٌ لا يراها أحد. ولم تكن تعلم أن الذاكرة ستعود إليها يوماً بهذه الكلمات نفسها، لا لتواسيها، بل لتوجعها.



«الوعود حين تُقال بصدقٍ تبدو أثقل من الجبال، وحين تُنسى تغدو أخفّ من الغبار.»

الفصل الخامس والخط مفتوح حتى الفجر

كان الحب في تلك الأيام يملأ كل ساعة من اليوم. لم يكن خالد يترك الساعة تمرّ دون أن يتحدث إليها أو يطلب أن تتحدث إليه. كان الوقت عنده مرتبطًا بها، كأن عقارب الساعة لا تدور إلا لتقربه منها. وإن غاب لحظة، عاد معتذرًا كأن اللحظة جريمة.

حتى حين كان يتناول طعامه كان يتحدث إليها، يتناول لقمةً ويحكي، ويحكي فتضحك، ويضحك فتشعر أن مائدته قد امتدت حتى وصلت إلى غرفتها. وحين كان ينام، كان يفتح لها الفيديو، فتبقى هي تراقب ملامحه الهادئة وهو غارق في نومه، فتشعر أنها تحرس حلمًا ثمينًا. كان يسهر معها حتى آخر الليل، ثم ينام والخط مفتوح بينهما، وكأن الحدود التي تفصل بلدين قد ذابت في ذلك الصوت الخافت من الأنفاس.

وكان يعلّقها به بكل تفصيلٍ صغير. تعلّقت به تعلّقًا كبيرًا، لا تعرف كيف بدأ ولا كيف صار بهذا العمق. كانت تقول لنفسها إن هذا هو الحب كما تحكي عنه الروايات، وإن العمر يستحق أن يُعاش مرةً واحدة بهذا الشكل. لم تكن ترى في الدنيا ما يعدل صوته حين يقول لها

«صباح الخير» بنبرة ناعسة، أو «تصبحين على خير» بنبرة يملؤها الحنين.

كان يعمل، ويتأخر في عمله كثيرًا. وكانت الساعات تمرّ عليه طويلةً ثقيلة، لكنه لم يكن يتركها. كان يفتح لها الفيديو ويبقى معها حتى الثانية بعد منتصف الليل، وأحيانًا حتى الثالثة، وهو في مكان عمله. ينشغل بما بين يديه، وينظر إليها بين الحين والحين، وابتسم لها ابتسامةً متعبة تقول: «أنا هنا، لم أذهب».

وفي كل تلك الليالي لم يقل لها ولو مرةً واحدة: «أنا مشغول». لم يقل لها: «لا أستطيع أن أحدثك الآن». كانت تلك الكلمات غائبةً عن قاموسه معها، فكأن الانشغال لا وجود له حين يتعلق الأمر بها. كان يجد وقتًا لها بين المهام، وفي الفجوات، وفي الأوقات التي لا يجد فيها الناس وقتًا لأنفسهم. وكانت مهد تری في ذلك دليلًا لا يُدحض على أنها أهمّ ما في حياته.

كان أول حبٍّ في حياتها. والأول في كل شيء يحمل بصمةً لا تُمحي؛ الأول يعلمنا شكل الحب، وصوته، ورائحته، ولونه. والذي يأتي بعده، مهما كان جميلًا، سيُقاس على الأول ويُقارَن به. لذلك كانت مهد تعلم، بحدسها الصافي، أنها تضع قلبها في يدٍ لن تستعيده منها بسهولة. وكان حبًّا حقيقيًّا بالنسبة إليها. أحبّته بصدق، بدون لُفٍّ ودوران، بدون كذبٍ أو تجمّل. لم تكن تخبئ مشاعرهما عنه، ولم تكن تلعب

لعبة الغموض التي يلعبها بعض العشاق ليدبوا أكثر قيمة. كانت تقول ما تشعر به في اللحظة التي تشعر بها، لأنها كانت ترى الصراحة أجمل ما في العاشق، ولأن قلبها كان مفتوحًا كصفحةٍ لا شيء عليها سوى اسمه.

وكانت الليالي بينهما طويلةً دافئة. كم مرة نامت وهاتفها مضيءً بجانبها وصوت أنفاسه يتردد في أذنها! كم مرة صحت على صوتٍ ناعسٍ يقول لها كلمةً تفتح لها يومها كما تُفتح نافذةً على بحر! كانت تظن أن الأيام ستبقى هكذا إلى الأبد، وأن الليل الذي يجمعهما لن يعرف الفجر الذي يفرقهما.

كان البيت من حولها ساكنًا، والأهل نيامًا، وهي في غرفتها تحيا حياةً أخرى لا يعرفها أحد. حياةً ممتدةً على خيطٍ رفيعٍ من الشبكة، لكنها كانت في نظرها أعمق من أي واقعٍ يلمسه الناس بأيديهم. لقد كانت تعيش في قلبه كما يعيش هو في قلبها، وكانت ترى في ذلك اكتمال الدنيا.

لم تكن تعلم أن كل ما هو مفرطٌ في الجمال هُشٌّ بطبيعته. وأن الليالي التي تُسقى بهذا السخاء قد تُحاسب صاحبها يومًا على كل دقيقةٍ أُعطيت. وأن الخط المفتوح بين قلبين قد يُغلق فجأة، من طرفٍ واحد، وبلا صوت.



«كم من دفءٍ كان يضيء الليل، ولم نعلم أنه ضوء شمعةٍ
تدوب لتنطفئ.»

الفصل السادس أول الصمت

وفجأةً، ودون سابق إنذار، تغيّر كل شيء.

لم يكن هناك خلافٌ ولا عتابٌ ولا كلمةٌ جارحة. لم يحدث شيءٌ يمكن أن يُشار إليه بالإصبع ويُقال: هنا بدأ الانكسار. كانت مهد تبحث في ذاكرتها عن هذه اللحظة، تقلّب الأيام والساعات والحوارات، فلا تجد إلا أن الحب كان في أمّ صورته، ثم صار فجأةً شيئاً آخر.

ناما ذات ليلةٍ كعادتهما. وحين أفاقا، ذهب خالد إلى عمله. وكانت العادة أن يرسل لها كلمةً قبل أن يخرج، وكلمةً حين يصل، وكلمةً حين يعود. هذه المرة لم يرسل شيئاً. ظنّت أنه نسي، فانتظرت. ثم ظنّت أن الطريق طويل، فانتظرت أكثر. ثم عاد من عمله، ولم يقل لها شيئاً.

كان هذا غريباً. كأن باباً كان يُفتح كل صباحٍ ببسمة، قد أغلق بصمت. وقفت مهد أمام ذلك الصمت وقوف الغريب أمام بيتٍ كان بيته، تدقّ الباب فلا يفتح أحد، وتنادي فلا يرتدّ إليها إلا صدى صوته.

صارت هي التي ترسل. أرسلت كلمةً، ثم كلمة، ثم أخرى. وكانت الرسائل تذهب إلى هناك وتبقى معلقةً في الفراغ. كان يمرّ على رسالتها ساعات، وهي ترى علامة الإرسال دون أن تتحول إلى علامة

القراءة. وأحيانًا يفتح الرسالة ويقول لها بجفاء: «مشغول». وأحيانًا تمرّ عليها أيامٌ كاملة ولا يفتحها أصلًا.

وجعها قلبها. كان الوجد في البداية صغيرًا كوخزة، ثم صار يكبر مع كل ساعة تمرّ دون ردّ. وراحت تشعر بخوفٍ جديد لم تعرفه في حياتها، خوفٍ من أن تفقده، من أن يذهب ولا يعود، من أن يتحول هذا الحب الذي كان كل شيء إلى ذكرى صامتة. كانت تتساءل كل لحظة: ماذا فعلتُ؟ ماذا قلتُ؟ ماذا نسيْتُ أن أقول؟ ولا تجد في ذاكرتها خطأً واحدًا يستحق كل هذا الصمت.

وكان الوجد يزداد في الليل. حين يخفت الصوت من حولها، وتغفو الأشياء، وتبقى هي وحدها مع هاتفها المعتم. كانت تنظر إلى الشاشة وكأنها وجه غائبٍ عزيز، وتتمنى لو أن اسمه يضيء. لكن الاسم لا يضيء. والشاشة تبقى سوداء كغيابٍ كاملٍ لا ملامح له.

لقد غابت الصباحات الجميلة، وغابت الكلمات التي كانت تفتح لها اليوم. لم يعد هناك «صباح الخير» ولا «تصبحين على خير». كل ما بقي هو فراغٌ مرتّب بعناية، يشبه غرفةً أُخليت من الأثاث وبقيت فيها الجدران تحفظ أصداء ما كان.

وحاولت مهد أن تقنع نفسها بأنها تبالغ. قالت إن الرجال يتعبون، وإن العمل يستنزفهم، وإنه سيعود غدًا كما كان. وغدًا جاء، ولم يعد. وبعد غدٍ جاء ولم يعد. وكل يومٍ كان يمضي ينتزع منها قطعةً من

اطمئنانها، ويُبقِيها أكثر تعلقًا بالأمل، لأن من يُحِبُّ لا يستطيع أن يقتنع بالرحيل بسهولة.

وفي زاويةٍ من قلبها كانت تعلم أن شيئًا ما قد انكسر، لكنها رفضت أن تعترف بذلك. فالاعتراف بالخسارة أصعب من الخسارة نفسها، والأمل، مهما كان واهيًا، يبقى أرحم من اليقين.

وهكذا بدأت الأيام الصعبة. أيامٌ لا تُعدُّ بالساعات بل بعدد الرسائل التي لم تُقرأ، وبعدد المرات التي ينظر فيها القلب إلى الهاتف ثم يعود خائبًا. وفي كل مرةٍ كانت مهد تقول لنفسها: «غداً سيعود»، وتصدّق نفسها، لأن التصديق كان الشيء الوحيد الذي بقي في يدها.

وكانت تتساءل في سرّها عن سرّ هذا التحوّل الذي لم يمهد له شيء: لا خلاف، ولا عتاب، ولا كلمةً غاضبةً تفسّر ما جرى. وكان هذا اللغز أشدّ عليها من الغضب نفسه، فالغضب يُعرف سببه ويُعالج، أما الصمت بلا سبب فلا يترك للقلب موضعًا يمسكه منه.



«ليس أقسى من الغياب إلا غياب بلا سبب، يترك للقلب
أن يؤلّف ألف تفسير ويصدّق أوجعها.»

الفصل السابع عشرون مكالمةً بلا جواب

حين يضيق الصبر، لا يبقى للقلب إلا أن يطرق الباب بقوة. وهكذا فعلت مهد.

صارت تتصل. اتصلت عشر مرات، ثم عشرين. كانت تضغط على اسمه ثم تضع الهاتف على أذنها، فيرنّ الرنين الطويل ويموت، دون أن يجيب أحد. كل رنةٍ كانت تُسقط في قلبها حجرًا. وكانت تعيد المحاولة، لأنها لم تستطع أن تتصور أن يصمت إلى النهاية على هذا النحو.

وأحيانًا كان يفتح. وكان فتح الخط أشدَّ قسوةً من تجاهله. يفتح ويغضب، ويصرخ في وجهها كأنها اقترفت جرماً، ويُنزل عليها من الكلمات ما يجرح القلب في موضعٍ لا يُشفى:

— أنتِ لا تفهميني! أنتِ لا تستوعبيني! أنا مشغول. إن عدتِ إلى الاتصال، أقسم بالله العظيم لأحظركِ.

كانت تسمع الجمل وكأنها تُلقى على رأسها حجارة. لم تفهم من أين جاءت هذه القسوة، ولا كيف تحوّل الصوت الذي كان يهمس لها بالأمان إلى صوتٍ يرميها بالتهديد. كانت تقول له بصوتٍ مرتجف:

— افهمني، ما الذي تغيّر؟ ماذا حدث؟

لم يجبها. وبدلاً من الجواب جاء الصمت، ثم الحظر. أُغلقت الأبواب كلها في وجهها دفعةً واحدة، وصارت رسائلها تذهب إلى لا مكان، لا تصل ولا تُقرأ ولا تُلقى في أي ميناء.

لم تستسلم. استعانت برقمٍ آخر، وكتبت إليه من هناك، تحاول أن تطرق باباً آخر لعلَّ أحدًا يفتح. لكنه حظر ذلك الرقم أيضاً، كما تُسدّ آخر نافذةٍ في بيتٍ يريد أهله أن يعيشوا في العتمة.

وتدخلت أختها. رأت وجعها، فلم تحتمل. كتبت إليه، تكلّمه لعله يفكّ الحظر، ويعيد لأختها ما أخذ منها. وأجابها بكلماتٍ قاسيةٍ قيلت عن مهد، كأن حبها الذي ملأ أيامه صار تهمة:

— أنتِ لستِ طبيعية. أنتِ مجنونة، أنتِ مريضة. حبّكِ صار غير طبيعي.

وصلت الكلمات إلى مهد، فارتجف قلبها. صار الحب الذي كانت فخورةً به، الحب الذي منحته بصدقٍ وبراءة، شيئاً يُوصف بالمرض. والقلب الذي لم يعرف إلا الإخلاص، صار يُتهم بالجنون. وقفت أمام الكلمات كمن يُسأل عن ذنبٍ لم يرتكبه.

وأخذ الخوف يتسلل إلى حبها. صارت تخاف من هذا الحب الذي كان يوم أمس بيتها. تخاف أن يكون فعلاً مفرطاً، وأن تكون هي التي

أفسدت كل شيء. هكذا يفعل الجارحون: يقلبون الجرح على صاحبه، فيصير المجروح هو من يعتذر.

قالت له: «لماذا؟ لماذا لم تقل لي من البداية؟» لكنه كان يتهرّب. كان يُغلق الباب في وجه السؤال كما أغلقه في وجه صاحبه. وكانت هي ما تزال، رغم كل ما سمعته، لا تريد للعلاقة أن تنتهي. فهي لم تُحبّ لكي يُقال لها في النهاية إن حبها مرض. كانت تحبّ لأنها صادقة.

وفي اليوم التالي، كتبت إليه مرةً أخرى. لم يكن في كتابتها ذلّة، بل كان فيها وفاء قلبٍ يرفض أن يُغلق دون أن يفهم السبب. وفاءً يظنه بعض الناس ضعفاً، وهو في الحقيقة أكبر ما يملكه الإنسان من القوة. وكانت تعود بعد كل مكالمةٍ لم تُحبّ إلى سريرها منهكةً كمن ركض طويلاً في طريق لا نهاية له، تضع الهاتف على صدرها وتسمع نبضها يعلو عليه. لم تكن تدري كيف تشرح لأحد أن اتصالها لم يكن إلحاحاً ولا تسلّطاً، بل كان محاولةً أخيرة لتتأكد أن الباب الذي أحبتّه ما زال هناك.

وكانت تخشى أن يكون الصمت الذي يلقيها اليوم هو الجواب الوحيد الذي سيصلها، فتتعلّق بكل رنةٍ كما يتعلّق الغريق بخشبة.



«حين يصبح الاتصال محاولةً للنجاة، يفهمه الطرف الآخر
ملاحظة.»

الفصل الثامن أعذار بلا نهاية

وعادت الخيوط تُنسج من جديد، لكنها كانت أرق من أن تحتمل.
كانت مهد تكتب له كل يوم، وكان يردّ أحيانًا بسطرٍ واحد، وأحيانًا
بلا شيء. وصار بينهما حوارٌ يتكرر كأنه قد حُفظ، يتبدل فيه المكان
والساعة ويبقى المعنى. كانت تسأله:

— أين أنت؟

فيجيب: «في العمل».

وتقول له إنها تريد أن تراه، فيقول لها إن ساعةً ستمرّ، ثم ساعتين.
وتنتظر، ولا تأتي الساعة. وحين تكتب له ثانيةً يجيبها:

— مشغول، لن أنتهي قبل الثانية والنصف ليلاً.

فتقول له: «حسنًا، سأنتظرك. حين تنتهي حدّثني». وفي ساعةٍ ما
من الليل يكتب لها:

— لا. نامي، وغداً سأحدثك في النهار.

ويأتي النهار، ولم ينتهِ من عمله بعد. تكتب له فيجيب أنه في
العمل والشباب بجانبه، وأنه حين يتفرغ سيتصل بها. فنتتظر. وتمرّ
الساعات، وتتسع الفجوة بين ما وُعد وما حدث.

— أنا في البيت لأنام، وغداً حين أذهب إلى عملي سأفتح لك.

— حسناً.

ثم تكتب له فيجيب أنه في العمل، ومشغول. وحين يعود إلى البيت يعدها أن يتصل بها، فتقول: «حسناً، تفضل، أنا أنتظرك». ويدخل البيت ولا يتصل. فتتصل هي، فيجيبها أنه استيقظ للتو، وأنه ما يزال غير صاحٍ، وأن رأسه يؤلمه، وأنه سيتصل حين يصحو.

وهكذا دارت الأعذار في دائرة مغلقة. كل عذر يلد عذراً، وكل وعدٍ يُوجَل إلى وعدٍ جديد، وهي تمشي في هذه الدائرة تنتظر نهايةً لا تأتي. كانت تعرف في قرارة نفسها أن لا أحد ينهكه العمل إلى هذا الحد، وأن من يحب يجد دقيقةً حتى في أشد الأيام ازدحاماً. لكنها لم تكن تريد أن تعرف.

وكانت تستحضر الأيام القديمة، حين كان يفتح لها الفيديو من مكان عمله ويبقى معها حتى الثالثة فجراً. تقارن بين ذلك الرجل وهذا، فلا تجد خيطاً يربط بينهما. كأن الاثنين شخصان مختلفان، وكأن الأول رحل وترك مكانه لشبحٍ يحمل اسمه.

وفي كل مرة كان يمرّ الوعد، وتبقى هي معلقة. تنظر إلى الساعة، فتجد أنها تقترب من الموعد الذي حدده، ثم تتجاوزته، ثم تبتعد عنه.

وكان أشدَّ ما يؤلمها ليس الانتظار نفسه، بل أن تعرف في النهاية أن انتظارها لم يكن يعني له شيئاً.

وقالت له ذات مرة، بعد أن أنهكها التعب:

— إن كنت لا تريدني، قلها لي. أحتمل الحقيقة، ولا أحتمل هذا التعليق.

لكنه لم يقلها. كان يقول إنه مشغول، فقط مشغول، كأن الانشغال تفسيرٌ لكل شيء، وكأن كلمةً واحدة تكفي لتغطية ما تغيّر في القلب. وكانت مهدّ تعود كل مرةٍ إلى الأمل، كمن يعود إلى أرضٍ احترقت ليبحث عن بذرةٍ لم تمت. وكانت تقول لنفسها: ربما هو متعبٌ حقاً، ربما الأيام ثقيلةٌ عليه، ربما سيعود حين تنفرج. وفي تلك الـ«ربما» الصغيرة كان يختبئ كل ما بقي لها من الحياة.

وكانت تحسّ بأن كل وعدٍ يُقال لها صار يشبه ورقةً تُكتب بقلم رصاص: تُمحي قبل أن يجفّ حبرها، ثم يُكتب فوقها وعدٌ جديدٌ بالشكل نفسه. ومع ذلك كانت تقرأ الوعد كل مرةٍ كأنه الأول.



«الأعدار تشبه الأبواب المغلقة: كلما طرقَها بلطف زاد صمتها.»

الفصل التاسع ثلاثة أشهر من الدموع

مرّت ثلاثة أشهر، وهو على الحال نفسها. ثلاثة أشهر لم تكن أيّامًا فحسب، بل كانت فصولًا كاملة من الانتظار، يتبدل فيها الطقس ولا يتبدل الوجع.

كان يعاملها بقسوةٍ تزداد كل يوم، قسوةٍ باردة لا صراخ فيها، لا ترك أثرا على الجلد ولكنها تحفر في الروح أخاديد عميقة. وكانت مهد تبكي كل يوم. تبكي في صمتٍ كي لا يسمع أحدٌ من أهلها، وتغسل وجهها كي لا يلاحظ أثر الدمع، ثم تخرج إلى البيت بوجهٍ يتصنّع الهدوء. أما في الليل فتسقط الأقمعة كلها، وتبقى هي وسقف الغرفة ووجعها الذي لا يجد من يسمعه.

وكانت ترفع يديها إلى السماء، وتقول بصوتٍ مبحوح: «يا الله، أعدّه لي كما عرفته». لم تكن تطلب سوى أن يعود كما كان، بصوته الدافئ وكلماته التي تحرس قلبها. كانت تظن أن الدعاء قد يعيد ما عجزت عنه الرسائل والمكالمات.

وصار الاشتياق شيئًا لا يُحتمل. اشتياقٌ ليس طبيعيًا، كأن في صدرها جمرَةً لا تنطفئ. كان الاشتياق يؤلم قلبها حتى تحس أنه

سيحترق، ويحترق، ويتوجع، ولا أحد يرى النار التي في داخلها. لم تعد قادرةً على أن تعيش دونه، وقد عرفت معه معنى الحياة ثم فقدتها.

وصارت تنام وبالها عند الهاتف. تضعه قرب وسادتها، وتغمض عينيها على أمل أن تصلها رسالة. وحين يرنّ الهاتف، أو يضيء، تفيق مذعورة، وتقول بسرعة: «يا ربّ، فليكن هو». ثم تفتح الشاشة، فلا يكون هو. وفي كل مرة كان قلبها يتكسر قطعةً جديدة، وكانت الدموع تنزل بلا استئذان.

وحتى حين كانت جالسةً مع أهلها في ساعات الصفاء، وتصلها رسالة، كانت تقول في سرّها: «يا ربّ، فليكن هو». ثم تنظر فلا تجده. وكانت تبتسم لأهلها وهي تنزف في الداخل، وتضحك لضحكاتهم وفي صدرها بكاءً مكتوم. هكذا تعلّمت أن تحمل حزين في آنٍ واحد: حزنًا يُرى، وحزنًا لا يراه أحد.

ثم جاءت لحظة لم تعد تحتمل فيها. نهضت من فراشها فجأة، كمن غلبه الوجد، وأمسكت هاتفها واتصلت به. رنّ الهاتف طويلًا، ثم قُطع الخط. اتصلت مرةً أخرى، ومرةً أخرى، وبقيت تتصل حتى فقدت العدّ، وهو يفرض ويقطع في وجهها كل مرة، كأن صوتها ثقلٌ يريد أن يتخلص منه.

كانت تسمع الرنين ينتهي بالانقطاع، فتحسّ أنه ينتهي في قلبها أيضًا. لم تكن تفعل ذلك عن ضعف، بل عن عجزٍ أمام ما لا تفهمه.

كانت تريد جوابًا فقط، كلمةً واحدة، حتى لو كانت قاسية، لتعرف أين تقف.

وفي الصباح تستيقظ على الوجد نفسه. تفتح عينيها وتذكر أن شيئًا ما ليس على ما يرام، ثم تتذكر أن ذلك الشيء هو كل شيء. تقف أمام المرأة فتري امرأةً تشبهها، لكنها أقلّ ضحكًا وأكثر صمًا، في عينيها حزنٌ عميق لم يكن فيهما من قبل.

ولم يكن في هذا كله لومٌ لأحد، بل كان وجعًا خالصًا صافيًا كالماء. وجعٌ جعلها تفهم أن الحب لا يعني دائمًا الفرح، وأنه قد يكون أحيانًا أثقل ما يحمله الإنسان على كتفيه، وأقسى ما يربّيه في قلبه.

وفي لحظاتٍ من الليل كانت تتخيل الهاتف يضيء فجأة، فتلتفت إليه بلهفة، ثم تدرك أنه خيالٌ صنعه الشوق. وكانت تعاتب نفسها على هذا التعلّق، ثم تعود فتعتذر لقلبها، فهي تعرف أنه لا يملك من أمره شيئًا، وأنه ما زال يحبّ كما أحبّ في أول يومٍ، وإن تبدّل كل ما حوله. وكان الوقت يمرّ ثقيلًا؛ اليوم يشبه الأمس، والغد يشبه اليوم، وكل صباحٍ يبدأ بالسؤال ذاته: هل جاءت رسالة؟ وكل مساءٍ ينتهي بالجواب ذاته: لا.



«ثلاثة أشهر لم تكن أيامًا، كانت دموعًا مرتبةً على وسادةٍ
واحدة.»

الفصل العاشر رسالة بعزّ قلب

حين يصل الوجد إلى حدٍّ لا يُطاق، يخرج من القلب شيءٌ يشبه الكرامة. ليس كبرياءً ولا قسوة، بل صوتٌ هادئٌ يقول: «يكفي، فقد قلتُ كل ما عندي».

جلست مهد ذات يومٍ تكتب رسالة. لم تكن تعرف إن كان سيقروها، ولكنها كانت تعرف أنها يجب أن تكتبها. أمسكت هاتفها، وبدأت تكتب بيدٍ ترتجف وقلبٍ ثابت، وكتبت له أنها تريده أن يفهم شيئاً واحداً: أن كل محاولاتها معه كانت لأنه عزيزٌ على قلبها، ولأنها تحبه كثيراً، لأنه الخيار الوحيد في حياتها.

قالت له إنها ما كانت لتلاحقه لو لم يكن أغلى ما عندها، وإن من يحبّ بصدقٍ لا يتخلّى عن محاولاته بسهولة. وأنها، مع ذلك، تعرف قيمة نفسها. وختمت الرسالة بأمنيةٍ صغيرة، لا تكاد تُعدّ طلباً: أن يعود إلى الظهور على تطبيق الرسائل، وأن يبقى حضوره مرئياً، لتطمئن عليه على الأقل من ظهوره الأخير. كانت تريد بقعةً صغيرة من الضوء تدلّها على أنه ما زال حياً في هذا العالم.

ثم أرسلت الرسالة، وجلست تنتظر. وفي الانتظار تمرّ الدقائق كأنها سنوات. تنظر إلى الشاشة وتتمنى وتخاف وترجو وتياس، ثم تعود فترجو. ولم تأتِ إجابة. ولم يتغيّر شيء.

وتذكّرت آخر مرةٍ تحدثا فيها عبر مكالمة. كانت المكالمة قصيرة، ثقيلة، خاليةً من كل ما كان يملأ مكالماتهما القديمة. لم يكن فيها ضحك ولا همس ولا حنين. كان صوته بعيداً كأنه يأتي من وراء جدار. وفي تلك المكالمة رأت بوضوحٍ موجع كم أنه لم يعد يريدّها. لم يقلّها بالكلمات، بل بالنبرة وبالصمت وبالمسافات بين الجمل.

وسألته: «لماذا؟ ما السبب؟». لم تجد جواباً. لم يعطها إياه، ولم تستطع أن تجده بنفسها. كل ما عرفته أن هناك باباً أغلق، وأن المفتاح ضاع، وأنه لا يريد أن يبحث عنه.

ومع ذلك كان في قلبها أملٌ ضعيفٌ كشمعةٍ في مهبّ الريح. أملٌ بأن يعود، وبأن يطفئ نار قلبها، وبأن يقول لها يوماً إن كل ما جرى كان خطأ سيُصلحه. كانت تعرف أن هذا الأمل قد يكون سراباً، لكنها لم تجد في نفسها قدرةً على أن تقتله.

وبعد الرسالة بقيت مهدّ زمناً طويلاً جالسةً في مكانها لا تتحرك. شعرت بخفةٍ غريبة، كمن ألقى عن كتفيه حملاً ثقيلاً حتى لو لم يتغيّر شيءٌ في الواقع. فقد قالت ما تريد أن تقوله. وعرفت أنها، مهما حدث،

لم تتخلَّ عن صدقها، ولم تُهنِ نفسها وهي تحاول أن تحافظ على من أحبَّت.

وفي آخر ذلك اليوم، حين أغلقت الهاتف ووضعتَه جانبًا، أحسَّت للمرة الأولى منذ شهورٍ أنها تتنفس بعمق. ربما لم تنسه، ولم تتوقف عن حبه، لكنها تعلّمت درسًا صغيرًا: أن تحبَّ لا يعني أن تتوسَّل، وأن تفقد لا يعني أن تنكسر.

وفي الليلة التي تلت الرسالة نامت مهد نومًا متقطعًا، تستيقظ كل ساعةٍ لتنظر إلى الشاشة، ثم تبتسم لنفسها بسخريّةٍ حزينة، وتعيد رأسها إلى الوسادة. كان قلبها يتعلَّم ببطءٍ كيف يحمل الأمل والكرامة معًا، دون أن يُسقط أحدهما الآخر.

وعرفت أن الصدق الذي منحته لم يكن خطأً، وأن الخطأ لا يقع على من أعطى بقلبٍ كامل، بل على من أخذ ثم صمت. ورغم ذلك لم تجد في داخلها مكانًا للكرامية؛ فقد كان الحب الذي في صدرها أكبر من أن يتسع لشيءٍ سواه.

وحين أشرق الصباح، فتحت النافذة واستنشقت الهواء البارد، وقالت لنفسها: «سأبقى صادقة، حتى لو لم يبقَ لي أحدٌ يشهد على صدقي».



«الكرامة أن تقول: أحبتك لأنني أريدك، لا لأنني لا أملك
سواك.»

الفصل الحادي عشر أُسْئَلَةُ لَا تَجِدُ جَوَابًا

كثرت الأسئلة في رأسها حتى ضاق بها. أسئلةٌ تدور كالنحل حول قلبٍ مثخنٍ بالجراح: لماذا؟ ولماذا الآن؟ وما الذي تغيّر بين ليلةٍ وضحاها؟ ولماذا يمضي إنسانٌ بعد أن يعد بالبقاء؟

وكانت كلما هدأت قليلاً عادت إليها الأسئلة، تطرق أبواب رأسها كما تطرق الريح نوافذ بيتٍ قديم. كانت تعرف أنها لن تجد الجواب، لأن الجواب عند من اختار الصمت. ومع ذلك لم تكن تكفّ عن السؤال، فالسؤال هو آخر ما يبقى للإنسان حين يُسلب كل شيء.

قالت له مرةً، بصوتٍ يملؤه الانكسار:

— لماذا فعلتَ بي هذا وأنت تعلم أنك ستمضي؟ لماذا كسرتَ قلبي؟ ما ذنبي؟ كل ذنبي أنني أحببتك.

لم يجب. وكانت تقول له مرارًا إنها لا تطلب منه الكثير، وإنها إذا كانت هناك فتاةٌ أخرى في حياته فلتُفهم، لا أن يُلقى بها دون جواب. كانت تريد أن تفهم فقط، لا أن تتحول إلى أليم صامتٍ لا يعرف سبب وجوده.

فأجابها بعبارةٍ قاسية: إنه لا يصلح لها، لا ولا لغيرها، فهو «وسخ» بحسب تعبيره، ولا يليق به أن يكون معها ولا مع غيرها. ثم عاد وهذّدها بأنها إن أعادت المحاولة فسيحظرها.

وكان في كلماته ما يشبه الهروب لا الصراحة، كأنه يريد أن يصنع من نفسه سورًا لا يقتحمه أحد.

وكانت تحاول أن تفهم. قالت له إن لكلٍ منا ناسًا في حياته، وعالمًا خاصًا يحتفظ به، وهذا مفهومٌ ومقبول. لكن أن تمرّ ساعاتٌ وأسابيع على من نحبّهم دون أن نحدّثهم، فهذا ما لا تفهمه. فأجابها أن الأمر عاديّ، وأن مرور ثلاثة أشهرٍ كاملة دون كلامٍ أمرٌ طبيعيّ.

سكنت مهد. لم تعرف كيف تُفهمه أنه ليس طبيعيًّا، وأنه حين يقول لها إن الأشهر الثلاثة مرّت بلا كلام، يصبح الحب مسافة، والمسافة غيابًا. كان يقول لها: «أنا مشغول، أنا عندي عالمي وناشي الذين يحبونني»، وكانت تفكّر في صمتٍ موجع أنها لا تملك في حياتها أحدًا مثله.

ولم تكن تقدر على تحمّل القصة أكثر. كلما حاولت أن تفهم ازداد الأمر غموضًا، وكلما سكنت ازداد قلبها اشتعالًا. فكانت تلوذ بالصمت، كالمريض الذي يعرف أن الدواء لن ينفعه فيستسلم للألم.

وكانت تتذكر كلامه القديم، حين كان يقول لها إنه سيتزوجها، وإنه يتخيلها حاملاً بابنه أو ابنته تمشي في البيت بخطواتٍ ثقيلة وهو يأتيها بمستلزمات الوحام. كانت هذه الصورة تأتيها في الليالي الطويلة، فتبكي أمامها كما يبكي المرء أمام مرآةٍ تريه ما فقده. كان طيباً معها في البداية، طيباً إلى درجة أن ذاكرتها لا تستطيع أن تصدق أن ذلك الرجل هو نفسه هذا الذي يصمت.

وكانت تسأل: أين ذهب؟ هل مات ذلك الإنسان الذي أحببته أم أنه لم يكن موجوداً؟ ثم تقول لنفسها: «لقد كان موجوداً، فأنا قد عشتُ معه». وفي هذه الجملة وحدها كان يكمن كل ما تملكه من يقين.

وتحوّلت الأسئلة، بعد مدة، إلى رقيقة. لم تعد تبحث عن إجاباتها، بل صارت تتعاش معهما كما يتعاش المرء مع جرحٍ قديم، يعرف مكانه ولا يلمسه إلا حين يضطر.

وأحياناً كانت تسأل نفسها: أيمن أن يكون السؤال نفسه هو الجرح؟ فقد صارت الأسئلة توجعها أكثر مما توجعها الأجوبة التي لم تأت. ثم تعود وتقول إنها لا تريد أن تعيش وهي لا تعرف، فالمعرفة، مهما كانت قاسية، أرحم من هذا التعليق الطويل بين حبٍّ مضى ولا جواب جاء.

وكانت تجلس في الليل تعيد ترتيب ما حدث كما تُرتَّب قطع
أحجية ناقصة؛ تضع كل حدثٍ في مكانه، ثم تكتشف أن القطعة
المفقودة هي التي كانت تفسر الصورة كلها.



«أصعب الأسئلة ما لا جواب له، لأنه يبقى معلقًا في
القلب كجريس لا يتوقف.»

الفصل الثاني عشر في غير أوانه

مرّت أشهرٌ أخرى والأيام تُطوى. وما زالت مهد، حتى هذه اللحظة، تحمل في صدرها ما حملته منذ البداية: أملًا صغيرًا بأن يعود.

ما زالت تحبه. لم يخذلها ولم يهدأ، كأن القلب يرفض الاستسلام لقراراتٍ لا يملك فيها صوتًا. قلبها وعقلها عنده، ولا تعرف كيف تُخرجه من بالها وتفكيرها. حاولت أن تنساه فازداد حضورًا، وحاولت أن تتجاهله فازداد صخبًا. وكأن النسيان لعبةً يتقنها الآخرون ولا تتقنها هي.

لم تعد تقدر على تخيُّله مع أحدٍ غيرها. تغمض عينيها فتراه وحيّدًا كما تتمنى، فإن مرّ في خاطرها طيفُ امرأةٍ بجانبه اشتعل في صدرها حريق. ولم تعد تقدر أن تكون مع أحدٍ غيره. لقد صار قلبها بيتًا مغلقًا لا يعرف إلا ساكنًا واحدًا، حتى لو غادر هذا الساكن ولم يعد.

ألغت فكرة الزواج من بالها. كانت تقول إن من يعرف الحب بهذا العمق لا يقبل بما دونه، وإن القلب الذي سُلب أول أمانه لا يعرف كيف يثق من جديد. وكرهت الرجال جميعًا من بعده، لأنهم يستحقون الكره، ولكن لأن الجرح كان أكبر من قدرتها على التمييز.

فلم تعد ترى في وجوههم إلا وجهًا واحدًا، ولا تسمع في أصواتهم إلا صوتًا واحدًا.

وتقول لنفسها أحيانًا إنه مهما أجرم في حقها، ومهما جرحها، فإن قلبها لا يكف عن غرامه. وإن حبها الكبير له لا يتوقف، لأنه هو الذي أمسك قلبها حين كانت وحيدة، وهو الذي احتواها وأشعرها بأن العالم أرحب مما تظن. هو الذي فعل بها كل تلك الأشياء العظيمة التي لم يفعلها أحد قبله.

وكانت تسأله في سرّها، كما سألته مرارًا بلا جواب: لماذا فعلت كل هذا وأنت تعرف في نفسك أنك راحل؟ لماذا جعلتني أتعلق بك، وكنت تعلم أن الطريق قصير؟ لماذا أعطيتني السماء ثم سحبت الأرض من تحت قدمي؟ ولكن الأسئلة، كما عرفت، تذهب إلى وادٍ لا يسكنه إلا الصدى.

ومع ذلك، تبقى في قلبها نافذة صغيرة مفتوحة. نافذة لا تغلقها لأنها تخاف أن يعود فيجدها مغلقة. تنتظر في الليالي الطويلة، وتحسب في الصباحات الأولى، وتظن أن الهاتف سيرنّ يومًا باسم تعرفه، وأن الصوت الذي غاب سيعود ليقول لها إنه كان مخطئًا.

وربما يعود، وربما لا. فالحياة لا تعدنا بشيء ولا تحاسب أحدًا على ما لم تعد به. لكنها تعلّمنا شيئًا واحدًا: أن بعض الأشياء تأتي في غير أوانها، وأن بعض القلوب تُولد في وقت لم يكن لها فيه مكان، وأن

الحب الذي يأتي في غير أوانه قد يكون أجمل ما في العمر، وأوجع ما فيه أيضًا.

وفي الليل، حين تهدأ الدنيا وتغفو البيوت، تجلس مهد عند نافذة غرفتها، وتنظر إلى سماءٍ لا تعرف إن كانت تظلل عليهما معًا، فتهمس بما لا يسمعه أحد: «أحببتك صدقًا، فكن أينما كنت بخير».

وفي تلك الجلسة الطويلة قرب النافذة، تذكرت مهد كل شيءٍ بوضوحٍ موحٍ: أول كلمةٍ في الخامس من أيار، وضحكته التي بدأت قبل ضحكته، والليالي التي سهر فيها معها حتى الفجر والخط مفتوح. مرت الصور أمامها كشريطٍ قديم، فابتسمت وبكت في اللحظة نفسها.

لم تعد تسأل متى سيعود، ولا إن كان سيعود. صارت تكتفي بأن تحمل حبها بهدوء، كما تُحمل شمعةً في ليلٍ طويل، لا لأنها تضيء الطريق كله، بل لأنها تمنع العتمة من أن تكون كاملة.

وهكذا بقيت مهد؛ قلبٌ صادقٌ في بيتٍ هادئٍ في سوريا، يحمل حبًا جاء في غير أوانه، ويعلم أنه سيبقى معه، حتى يشاء الله أن يجيب عن كل ما لم يُجب.



«بعض الحب لا يموت حين يرحل صاحبه، بل يبقى حيًا
في غير أوانه، يؤلم ولا يموت.»

الخاتمة

هنا تنتهي الصفحات، ولا تنتهي الحكاية. فمهد ما زالت، في غرفتها الهادئة، تحفظ في قلبها نافذة صغيرة لا تغلقها، وتعرف أن بعض القصص لا تُغلق بجملة أخيرة، بل تبقى مفتوحة كجرح لا يلتئم ولا ينزف.

لقد علّمها هذا الحب أن الصدق لا يضمن النهايات السعيدة، لكنه يمنح صاحبه شيئاً أثمن: أن ينظر إلى نفسه في المرأة دون خجل. وعلمها أن الغياب بلا سبب قد يكون أقسى من أي وداع بكلمات، وأن الحب الذي يأتي في غير أوانه يترك في الروح أثراً لا يمحوه الزمن.

ولعلّ أجمل ما تبقى من كل هذا أنها أحبّت بصدق، ولم تُخفِ قلبها عن أحد. وهي، رغم الوجد، لم تندم على ذلك لحظة واحدة.

وإن سألتني أحدٌ يوماً عن عنوان هذه الرواية، فسأقول له إن «في غير أوانه» ليس اسماً لحكاية فحسب، بل وصفٌ لكل شعورٍ جاءنا قبل أن نستعدّ له، أو بعد أن فات موعده. فالحب كالمطر: لا يعتذر عن توقيته، ولا يسأل إن كانت الأرض جاهزة أم لا، ثم يترك فينا ما يترك.

فإلى كل قلبٍ يقرأ هذه الكلمات وفي صدره حكاية تشبهها: لا تخجل من دموعك، ولا من صدقك، ولا من انتظارك. فالقلوب التي تُحب بهذا العمق هي التي تستحق، يوماً ما، أن تُحب بالعمق نفسه.

بقلم الكاتبة
نهد سليمان دالاتي